

كان يشق ظلمات الحاضر ويأتي.. يخرج من أنوار الماضي بجسده العملاق وقامته المديدة.. تجول قليلا في المكان.. مدهوشا كان وهو يقرأ عناوين الجرائد ويتصفح المجالات.. كان يهز رأسه غير مصدق ويقول.. «لا».. بعد قليل بكى، ثم سار مسرعا يشق ظلمات الحاضر بقوة ويختفي في أنوار الماضي.. عبّر المكان كله صاح صوت قوي.. كان يتحدث بفخر ويملاً فمه بالكلام.. قال..

هل تعرفون ذلك الذي حضر ثم غاب؟.. ذلك هو أحمد ابن هارون؟..

سنتظرون ثم تتراقص بسمة حية على شفاهكم وتقولون من هو أحمد ومن هو هارون؟.. حسن سأعطيك بعضا من المعلومات تستطيعون بها أن تعرفوا هذه الشخصية العظيمة في تاريخ أهل النخوة والغيرة والكرامة من بني آدم جميعا..

هل تعرفون ذلك الرجل الذي بلغته صيحة مسلمة، عبت بها بعض الروم في عمورية فنادت.. وامعتصماه.. فقام غيورا.. مستجيبا لندائها وفتح عمورية ورد لها كرامتها؟ هل عرفتموه؟

«ومن منا لا يعرفه؟.. ومن منا لا يذكره اليوم.. كل يوم، وهو يرى المسلمين تستباح حرمتهم وتنتهك مقدساتهم وتراقق دماؤهم.. تعلق صرخات نساء كثيرات، وترتفع صيحات أطفال كثيرين ثم تذهب هباء.. لا يتحرك لها أحد.. ولا ينصرهم أحد»..

أحدثكم عن أحمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي..

تولى الخلافة بعد أخيه عبد الله المأمون، وبينما هو في ملكه أتاه رجل ليحدثه بما جرى لهذه المرأة وكيف عبت بها الرومي.. وكيف لم تجد شيئا تفعله غير أن تصرخ.. وامعتصماه.. تندب المعتصم كأنه ميت من الموتى الذين يملؤون القبور.. لا يسمعون

صرخة في حلق رجل مات



ولا يتحركون..

«نعم.. تندبه كأنه مات وإن كان حيا.. فكيف يترك خليفة رسول الله وأمير المؤمنين امرأة مسلمة يعبث بها كافر..

لم يكن يُقتل أبناؤها أمامها.. ولم يكن يقيم معسكرات لاغتصابها هي وأخواتها.. ولم يكن يأخذ بالطفل من يده ثم يرميه وهو حي في فرن مشتعل، ثم بعد ذلك يخرج الطفل وقد شوي ويأمر أمه وأباه بأن يأكلا منه..

لم يكن يفعل شيئاً من ذلك وإنما هو عبث واستثارة بسيطة فصرخت وقالت.. وامعتصماه.. إذا كنت حيا أيها المعتصم، فمن ينصرنني من الناس غيرك، وقد وليت أمر المسلمين وصرت لهم خليفة..»

ضحك الرومي وسخر.. ملأ شذقيه بضحكاته وقال.. ماذا تظنين المعتصم فاعلاً لك.. هل سيجيش الجيوش ويجمع الجموع لينصرك أيتها البائسة الذليلة التي لا يعرف اسمك ولا مكانك أحد.. ثم مضى.. نشوان طرباً.. يضحك من حماقة تلك المسلمة وغباؤها..

ولكن الله، الذي هو بالمرصاد - حمل هذه الكلمة إلى المعتصم، فقام ولم يقعد.. أمر بأن تجيش الجيوش وتعد العدة لغزو عمورية واستنقاذ تلك المرأة..

«نعم.. لأنه إن لم يفعل ذلك فهو ميت وإن كان حيا.. كيف تسمح له نفسه بأن ينعم في ملكه وامرأة مسلمة يعبث بها كافر..»

وهنا أتى دور المثبتين والمرجفين..

«الخونة المدسوسون في بطانة الخليفة.. يتكلمون بلساننا ويأكلون طعامنا ولكنهم يتربصون بنا الدوائر.. ولا يقبلون أن يتم أمر فيه خير لنا بسهولة، دون أن يتدخلوا ليفسدوه، إن استطاعوا..»

قالوا.. يأيها الخليفة.. إنا نرى في النجوم أن هذا الوقت غير ملائم لفتح عمورية، فإذا انتظرت حتى

ينضج التين والعنب لكان وقتاً موافقاً.

«ما شأن النجوم وما شأن التين وما شأن العنب بالانتصار في الحرب؟!.. إن النصر مع الصبر وإن الله ينصر جنوده في كل وقت وفي كل حين، ما استمسكوا بحبله واعتصموا به..»

لم يسمع المعتصم لكلامهم وسار إلى عمورية فاتحاً.. منتصراً.. ليقول للناس.. إن المسلمين ذوو نخوة.. أقصد كانوا ذوي نخوة وغيره..

حينما وصل الحاج عمر إلى هذا الحد قام من على كرسيه كأنما لدغته حية.. سار في الغرفة بسرعة لا تتناسب أبداً مع السنين السبعين التي ترقد فوق كاهله.. كان الليل هادئاً.. لاصوت ولا حركة.. بعد قليل تنبه إلى نظارته السمكية التي لم يعد يستطيع القراءة بدونها في السنين الأخيرة.. نزعها من على وجهه ثم رمى بها بعنف لترطم بكتاب التاريخ الذي كان يقرأه منذ قليل.. أخذ يدور ويدور. نفسه يتردد بسرعة..

يلهث وحينما بلغ منه التعب كل مبلغ جلس على الأرض.. يريد أن يصرخ ولكن الكلمات احتبست في حلقه.. ترفض الخروج بإصرار وعناد.. أخيراً استطاع أن يصرخ..

وا.. وا.. وا..

ولم يستطع أن يكمل..

أفزعت صرخته أهل البيت.. أسرع زوجته وأسرع ابنه الحاج صلاح الدين وأسرع زوجة ابنه وأولادهما ليروا ما حدث..

كان الحاج عمر قد مات.. ينظر إلى أسرته وعيناه محمقتان وعلى وجهه كل علامات الألم.. على مقربة منه كانت الجرائد الصباحية التي تتحدث عن غطرسة نتنياهو وعن شق النفق تحت الأقصى وعن الإعلان عن الشقق الفاخرة بالمصيف الفاخر..

بقلم: عبد الجواد محمد الحمزاوي